هذه هي الماركسية

تأليف
هنري لوفابر

ترجمة
محمد عيتاني

دار بيروت
للطباعة والنشر
بيروت ١٩٥٢

مدخل

قبيل الحرب العالمية الثانية ، نشرت مجلة « الوثائق الفلسفية » الكاثوليكية ، مجلداً ضخماً خصصته لدراسة الماركسية ومناقشتها (العدد ١٨ من هذه النشرة) وقد نبه مؤلفو هذا المجلد قراءهم، في مستهل البحث ، الى انه « من الخطأ النظر الى الماركسية ، بصفتها نشاطاً سياسياً فحسب، او حركة اجتماعية تتساوى وسائر الحركات المعاصرة : فان النظر الى الماركسية من هذه الزاوية الضيقة ، يفسد البحث ، ويشوه الحقائق ، فالماركسية ليست مجرد طريقة للفلسفة او مجرد منهج للحكم ولا مجرد حل فني لقضايا الاقتصاد ، كما انها ليست « فكرة » مثالية غامضة او دعوة عاطفية تتفجر خطباً حماسية وآيات بينات. بل انها في نظر الماركسيين ، على الاقل ، نظرة شاملة الى الانسان والتاريخ ، الى الفرد والمجتمع ، الى الطبيعة والى الله . بل هي تحليل شامل للنواحي النظرية والتطبيقية ، ونوجز فنقول انها نظرة الى الوجود لا تخلو من ضلال » .

ولا شك في ان العداء للفكرة الماركسية يبدو جلياً في هذا « الاعتراف » الساذج ، وخاصة في قولهم « في نظر الماركسيين

على الاقل » وقولهم « لا تخلو من ضلال » . ولكنه يبدو اكثر وضوحاً في الخلط بين القول انها « النظرة الشاملة الى الانسان والى التاريخ » وبين وصفها « بالضلال » .

ولكن هذا لا يهمنا . بل المهم ان نرى في هذه الكلمات اعتراف اشد اعداء الماركسية ضراوة بانها « نظرة الى الوجود ».

اما المقالات والردود والمناقشات التي نشرت ضد الماركسية ولم تبلغ هذا المستوى الفكري الرفيع فلا تختلف عن مقال المجلة الكاثوليكية في غايتها، بل انها لتؤيد تصريح رجال اللاهوت وكتّاب الكاثوليكية ، في نظرتهم الى الثورة التي فجّرها كارل ماركس .

ونتساءل الآن : ما معنى قولنا « نظرة الى الكون » ؟. معناه نظرة شاملة الى الطبيعة والانسان ومذهب[1] كامل .

وفي بعض الاحيان ، كانت كلمة « نظرة الى الوجود ، الى الكون » تعني ما تعارف عليه المفكرون ، وسموه « فلسفة » فقولنا نظرة الى الكون يدل على معنى اوسع من مدلول لفظة فلسفة : اولاً — لاننا نجد ان كل نظرة الى الكون ، وكل مفهوم للكون ، يجب ان يستدعي عملاً ، اي شيئاً اكثر من موقف فلسفي تأملي ، وان لم ينص المذهب صراحة على العمل ،

(١) راجع كلود برنار : « حين تخضع الفرضية لتحقيق تجريبي ، فانها تصبح نظرية . اما اذا اخضعت للمنطق وحده فهي لا تعدو كونها نظاماً عقلياً او تأملياً » . (الطب التجريبي ، طبع جيلبير ص ٢٨٥).

وان لم تكن العلاقة واضحة ، بين المذهب والعمل ، وان كان العمل المنشود لم يتركز في منهج ، فهذا كله لا يمنع من وجود المذهب .

ففي نظرة المسيحية الى الكون نجد ان هذا « العمل » هو السياسة التي تنتهجها الكنيسة ، تلك السياسة المعلقة بقرارات السلطة الكهنوتية .

ومع ان هذا العمل لا تربطه علاقة عقلية بمذهب عقلي فهو موجود في عالم الواقع ولا يسعنا نفيه او التقليل من اهميته .

اما في مفهوم الماركسية للكون ، فبوسعنا ان نضع تعريفاً عقلياً للعمل، يرتبط اوثق ارتباط بالجزئيات الاخرى للمذهب، مفضياً ، صراحة ، الى منهج سياسي . وهذان المثلان كافيان للدلالة على ان النشاط الواقعي التطبيقي ، والنشاط الاجتماعي السياسي (وقد اهملته الفلسفات التقليدية الماضية ، او وضعته على هامش نظرياتها وتعاليمها) يؤلفان جزءاً اصيلاً من نظرة الفكر الماركسي الى الكون .

ومن الناحية الثانية، ليس من الضروري ان تكون النظرة الى الكون ، من عمل هذا المفكر او ذاك ، او نتيجة لجهوده الفردية الشخصية . بل انها من عمل عصرها ، وهي التعبير عن هذا العصر ، وعلينا ، لكي نبلغ كنه النظرة الى الكون ، او نعبر نحن عن هذه النظرة ، ان نتعمق درس آثار اولئك الذين تدبروا امر الوجود ، ودرسوا اسرار الكون ؛ فلا نعمد

الى استخلاص النتائج الا بعد حذف التفاصيل الزائدة والهوامش الفضولية . وعلينا تكوين فكرة ، صادقة ، علمية ، موضوعية ، عن المجموع .

اما اذا عكفنا على الفلسفة ، او على تاريخ الفلسفة ، وتقيدنا بالمفهوم التقليدي لكلمتي « فلسفة وتاريخ » فان هذا يحملنا على البحث عن الفوارق البسيطة والهوامش والتفاصيل التي تميز بين « المفكرين » وتعبر عن خصائصهم الشخصية .

والآن نتساءل : ما المفاهيم الكونيّة الشاملة المتصارعة في عالم اليوم ؟

ـ هناك ثلاثة... ثلاثة فحسب :

اولاً : المفهوم المسيحي الذي عبر عنه كبار علماء اللاهوت الكاثوليكي ، بوضوح عظيم ، ودقة متناهية .

واذا نظرنا الى مبادئه الاساسية الجوهرية ، وجدناها تنحصر في الاعتقاد بسلّم تصاعدي ينتظم الكائنات ، والاعمال والقيم والاشكال والناس . وفي ذروة هذا السلم التدريجي نجد الكائن الاسمى ، الروح المطلق ، السيد الاله .

وقد عبرت القرون الوسطى عن هذا المذهب الذي يهدف حقاً الى النظر في الكون نظرة شاملة ، عبرت عنه تعبيراً دقيقاً لا يغادر كبيرة ولا صغيرة فلم تضف العصور التالية الا القليل الى افكار القديس توماس مثلاً .

وقد كانت هذه النظرية « الطبقية التدريجية » ملائمة لروح العصور الوسطى ، لاسباب تاريخية ، وهذا لا يعني ان نظرية السُلّم التدريجي الطبقي « الثابت » — على الاقل في نظر اللاهوت — قد زالت اليوم ، غير انها كانت في العصور الوسطى اكثر وضوحاً وجلاء واكثر احتفاظاً بمظهرها الرسمي ، منها في العصور التالية لها. فنظرة العصور الوسطى الى الكون لا تزال، اذن ، هي تلك النظرة ، هي المفهوم الذي يخوض ساحة الصراع العقائدي المعاصر .

ثانياً — المفهوم الفردي للوجود ، وقد ظهر منذ اواخر القرون الوسطى (في القرن السادس عشر، وفي كتابات مونتاني خاصة) ، ونادى كثير من رجال الفكر بهذا المفهوم ، وعبروا عنه ببساطة ، او تعمقوا دراسته ، ناظرين اليه من زوايا مختلفة او مضيفين اليه هوامش فرعية ، لا تناقض حقيقته وجوهره . وهم لم يغيروا شيئاً من خصائصه الاساسية : فالفرد (وليس السُلّم التصاعدي الطبقي) هو ، في نظرهم ، الحقيقة الجوهرية. وهم يعتقدون انه يملك « العقل » في اعماق نفسه الداخلية ، وان ثمة وحدة، او اتحاداً، بين مظهري الكائن الانساني، وهما المظهر الفردي والمظهر الجماعي الشامل ، ويجمعهما انسجام عفوي تام . كما نجد هذه الوحدة بين المصلحة الفردية والمصلحة العامة (مصلحة جميع الافراد)، بين الحقوق والواجبات، بين الطبيعة والانسان.

وقد حاولت الفكرة الفردية ان تستبدل بالنظرية التدريجية

الطبقية المتشائمة (الازلية في اساسها ، المرتكزة دعائمها على ما وراء الطبيعة ، ذلك العالم الروحي الصرف) نظرية متفائلة ، فيها انسجام طبيعي بين البشر ووظائفهم الانسانية .

واذا نظرنا الى هذه الفكرة من الناحية التاريخية ، وجدنا انها بمثابة فكرة تحررية، نشأت في ظلها الدولة الحديثة ، والطبقة البورجوازية الصاعدة ، في عهد الرخاء الاقتصادي .

فهي اذن، تمثل، بخاصة، المفهوم البورجوازي للكون ، رغم ان البورجوازية الآخذة في الانحلال تتخلى اليوم عن هذا المفهوم ، وتعود لتعتنق مفهوماً متشائماً استبدادياً ، يؤمن بالطبقية، ويعتقد بنظرية السُلّم التدريجي للكائنات. ان الماركسية ترفض الاعتقاد بطبقيّة تصاعدية ، تدريجية للكائنات (اي بميتافيزيك من اي نوع كان) . ولكنها لا تسمح لنفسها من ناحية ثانية ، بان تسجن في ضمير الفرد ، وفي مراحل وعي هذا الفرد ، ذاته المنعزلة ، كما يحدث في الفكرة الفردية . بل انها - اي الماركسية - تعي الحقائق التي لا يستطيع الفرد ان يبلغها عند دراسته لذاته . وهي حقائق طبيعية (تمسّ الطبيعية والعالم الخارجي) وتطبيقية عملية (العمل ، النشاط) واجتماعيّة تاريخية (التركيب الاقتصادي للمجتمع، الطبقات الاجتماعية الخ..) ثم ان الماركسية تنبذ ، بعد تفكير وروّية ، خضوع العناصر الانسانية والمجتمعية ، بعضها لبعض على نحو مفروض من قبل ، وهي ايضاً لا ترى صحة افتراض الانسجام العفوي بين العناصر

الانسانية، او بين التراث والمجتمع . بل انها لتلاحظ في الواقع، وجود « متناقضات » في صميم الانسان ، وفي صلب المجتمع . وهكذا قد تتعارض المصلحة الفردّية (الخاصة) ، وهي متعارضة فعلاً، وفي اكثر الاحيان، مع المصلحة العامة. واهواء الافراد، او اهواء بعض الجماعات ، او الطبقات ، ثم مصالحهم كذلك، لا يمكن ان تنسجم انسجاماً عفوياً مع « العقل » و « المعرفة » و « العلم » . وهذا يقودنا الى ملاحظة اكثر شمولاً ، وهي ان الانسجام الذي زعمه كبار الفلاسفة الفرديين ، وأكدوا وجوده بين الطبيعة والانسان ، لا وجود له في الواقع . فالانسان يصارع الطبيعة ، وعليه ان لا يحتفظ بسلبيته ازاءها ، فيظلّ على سطحها ، يتأملها، او يفنى رومانتيكياً في ذراتها ، بل عليه ان يروضها ، ويتغلب عليها بالعمل ، والتقنية ، والمعرفة العلمية ، وهكذا يجد نفسه ، ويحقق ذاته .

واذا قلنا « متناقضات » عنينا ايضاً مشكلة تتطلب حلاً ، وصعوبات وعقبات ، اي نضالاً ونشاطاً، ولكن هذا يعني ايضاً النصر المأمول ، والخطو الى الامام ، والتقدم... وهذا كله يعني ان الماركسية تتجنب التشاؤم النهائي كما تتجنب التفاؤل الهين.

لقد اكتشفت الماركسية الواقع الطبيعي التاريخي المنطقي ، واقع المتناقضات ومنه استمدت وعياً جديداً لشؤون العالم الراهن، حيث تبدو المتناقضات بدهية جلية ، الى درجة تحمل على اليأس من معالجة شؤون الكون وتدعو الى اعتبارها مستعصية الحل ،

مستحيلة التفسير ، لو لم نتخذ من نظرية المتناقضات مرتكزاً لابحاثنا ودراساتنا .

لقد ظهرت الماركسية الى الوجود ، مرتبطة تاريخياً بظهر النشاط البشري الذي يجعل من صراع الانسان مع الطبيعة عملاً بدهياً : ونعني به الصناعة الضخمة المعاصرة ، مع كل القضايا التي تطرحها على بساط البحث .

وثمة عنصر آخر يعبر عن الماركسية في علاقاتها بالحقيقة الاجتماعية الجديدة ، وهو عنصر يختصر ، في داخله ، متناقضات المجتمع الحديث ، وهذا العنصر هو الطبقة البروليتارية العاملة .

وقد كتب ماركس ، منذ اول عهده بالتأليف والبحث ، ملاحظاً ان التقدم التقني ، وسيطرة الانسان على الطبيعة ، وتحرره التدريجي من ربقتها ، وزيادة ثروات المجتمع المعاصر على نحو عام (المجتمع الرأسمالي طبعاً) ـ هذه المظاهر لاحظ ماركس انها ستؤدي كلها الى تلك النتيجة المتناقضة : استعباد شطر كبير من المجتمع ، يزداد يوماً بعد يوم ، ويزداد معه الافقار والتجويع . وهذا الشطر هو العمال الاجراء .

قضى ماركس سنيه كلها ، في تحليل هذه الحالة ، والتعمق في درسها ، والدفاع عن نظريته ، فدلل على ان هذا التناقض يخفي في اعماقه حكماً بالاعدام على المجتمع الرأسمالي .

وهكذا ظهرت الماركسية في المجتمع الحديث ، بظهور الصناعة الكبرى ، والبروليتاريا الصناعية . وهو يبدو لنا بمثابة نظرة الى

الكون تعبر عن العالم المعاصر ومتناقضاته ، وقضاياه ، ونقترح حلولاً عقلية لهذه القضايا .

* * *

قلنا ان هناك ثلاثة مفاهيم للكون ، ليس غير . وهذا يعني ان بعض « النظريات » التي تعد نفسها اليوم ، مفاهيم للكون ، لا تملك ما يجيز لها هذا الزعم .

فالوجودية مثلاً... وقد عرفت في ايامنا هذه رواجاً عظيماً، تهتم ، اول ما تهتم ، بالضمير الفردي، وحرية الفرد، وتجعل المقياس الفردي هو المطلق . واذا نظرنا الى الوجودية من هذه الزاوية، لا نراها الا شكلاً رجعياً منحطاً من اشكال الفردية التقليدية القديمة . ونحن نعلم ان الوجودية الحديثة تهاجم التفاؤل الهين وتجنح الى نوع من تحمل التبعات . ونعلم ايضاً انها اغتنمت الفرصة، لتجديد قواها، و «تهريب» بعض الافكار العتيقة البالية فاكتست بغلالة ماركسية شفافة لم تستر معايبها . ولكن هذا لم يبدل شيئاً في جوهر المسألة ، فالوجودية تبذل اقصى جهودها لتصل الى حقيقة مطلقة «مزعومة» تستخلصها من وصف «الوجود» وتحليله ، ومن الوعي الفردي العميق .

هناك ثلاثة مفاهيم للكون... ثلاثة حسب ، وهذا يعني ان الفاشية والنازية الهتلرية لم تستطيعا ، رغم مزاعمهما المضحكة، ان تنشئا نظرة الى الكون ، وقد ارادت كل فكرة منهما ايهام نفسها وخداع الآخرين ، فزعمت انها جاءت بفكر جديد ، وقد

حاول رجال الايديولوجية الفاشية الايطالية تأليف «دائرة معارف فاشية» وفقاً لتوصيات الدولة. وكذلك حاول رجال الايديولوجية الهتلرية (روزنبرغ مثلاً...) تفسير التاريخ ، ولو عكفنا على هذه المؤلفات البهلوانية السحرية ، وتعمقنا درسها، لما وجدنا غير ركام من اللبنات الفكرية المحطمة . فرجال الايديولوجية الهتلرية استعاروا من الديانة اليهودية القديمة فكرة الشعب المختار، وفكرة العرق والسلالة، وحسنوا فيها، مستندين الى ملاحظات بيولوجية لا تزال موضعاً للاخذ والرد، واستعاروا من الماركسيين فكرة العمال والاجراء ، ولكنهم شوهوها بالغش والتمويه ، فضربوا الامثال بامم بروليتارية مزعومة (المانيا ، ايطاليا ، اليابان...) تضعها ظروفها الاقتصادية في ساحة الصراع ضد الديموقراطيات الرأسمالية... الخ... الخ...

وهكذا لم تكن الفاشية ولا النازية اكثر من خليط من الافكار المستعارة المزيفة ، وركام من المزاعم الرجعية المتباينة لا تجمعها اية واسطة عقلية ، (بل الفكرة النازية، تحتقر العقل).

* * *

هناك اذن ثلاثة مفاهيم للكون ، ثلاثة فحسب .

وعلينا ، اذا اردنا تحليل هذه المفاهيم ، والحكم عليها او لها، ان نتجرد اولاً من كل ما يحيط بهذه القضايا عادة من هالات تقليدية غامضة ، وعواطف حماسية ، فنطرح المسألة على صعيد العقل وحده .

والماركسية بصفتها مذهباً جديداً ، لم تتمتع ، بعد ، بنوع من الهيبة العاطفية ، تدعمها اجيال من التعابير الفلسفية والجمالية. بل ان الماركسيّة تتحلى بطابع الجدة ، و « حداثة العهد » ، بكل ما في هذه التعابير من معان . وان التأملات الطويلة في الموت ، وفي ما وراء الطبيعة ، الواردة في مؤلفات لا تحصى ، وحماسة الفرد الروحية المستعرة ، بصفته قيمة فرديّة نهائية ، خلقت حول المسيحية وحول الفردية طائفة من المشاعر المبهمة الغامضة ، العميقة ، التي لا تخلو من قوة وعظمة . فاذا اردنا ان نحكم ، في المفاضلة بين المفاهيم المتناحرة في عالم اليوم ، فعلينا ان نستبعد اولاً هذه العواطف الشخصية وهذه الاحكام الطبقيّة اللاهوتية التي تفتح الطريق لكل فوضى وبلبلة ، وتبرر كل الاخطاء ، وتكون بمثابة ملجأ غير عقلي ، لجميع الذين يرفضون النزول على حكم العقل .

وبَدَهي ان الفردية تحتضر باجل . انها تموت ، وبوسعنا ان نؤكد هذا ، وان تركت في احاسيس البشر اليوم خلجات عميقة . ولو استعرضنا تاريخ الفردية لرأينا كيف تراجع كبار ممثلي هذه الفكرة ، واعترفوا مرغمين بطبيعة الاشياء الثنائية المتناقضة ، في العلاقات الطبيعية بين الناس . وليس اروع من آثار نيتشه في التدليل على ما نقول .

ونزيد فنقول ان الفردية قد انفجرت (بكل معنى الكلمة) بفعل متناقضاتها الداخلية الخاصة . ان الوحدة المنسجمة التي كان

يزعمها مفكروها القدماء (ديكارت ، ليبنز مثلاً ، ثم روسو..) هذه الوحدة التي تلائم بين الفكر الفردي والفكر المطلق ، بين المظهر الشخصي والمظهر العام ، هذه الوحدة ، دللت الاحداث على خياليتها وخطئهـــا . فقد انفصل المظهر الفردي عن المظهر العام ، لكي ، يناقضه، في حركة فوضوية تشمل جميع المظاهر من ادبية وعاطفية وسياسية .

ويقابل هذا ان العنصر الشامل لم يستطع المحافظة على ماهيته في هذا « الجو » الفكري ، الا بسحق المظهر الفردي ، متخذاً ذريعة الحتميات او اللابديات الاجتماعية (كانت) اما اليمينيون من اتباع هيجل فقد اتخذوا من الدولة تجسيداً للعقل .

ونحن نعرف ولا شك ان الجوانب الاقتصادية والتشريعية والسياسية في الفكرة الفردية (نظرية الحرية التقليدية ، ومذهب حرية التصرف) قد انهارت كلها نظرياً وتطبيقياً وجاء انهيارها مدوياً عظيماً ، رغم جهود مفكري « الحرية الجديدة » ...

والمتناقضات الكامنة في صميم المبـــادىء العقلية والتحررية الفردية العتيقة ، وعجز مفكري هذه المذاهب عن فهم طبيعة المتناقضات من ناحية عامة ، هذا كله جرّد المباديء المذكورة، من احسن فضائلها فانهارت بعد ذلك .

ولا نجد الآن ، في قسم كبير من اوروبا ، وفي فرنسا خاصة ، الا المسيحية (الكاثوليكية التي لم تتلقح بروح البحث البروتستانتي الحر) في مواجهة الماركسية .

اما قولنا ان الكاثوليكية هي مذهب سياسي، وبتعبير آخر: اما قولنا ان الكنيسة تتبنى سياسة معينة، فأمر لا يحتاج الى دليل. ولكننا نستطيع ان نلمس بوضوح طبيعة الصلة بين المذهب المسيحي وسياسة الكنيسة ؛ ونحن نريد توضيح هذه النقطة :

فهل تكون هذه الصلة صلة عقلية ؟

نجيب قائلين : « لا » فانه من الصعب استخلاص صلة عقلية من الفرضيات عن الموت ، والروح، وما وراء الطبيعة، وربطها بمبادىء تنظم شؤون الدولة ، وتضبط امور الكيان الاجتماعي. وهذا يصح ايضاً في النظرية المسيحية ، وفرضياتهـــا المجردة (الميتافيزية الغيبية) ورأيها في سُلّم الجوهر الطبقي التدريجي .

وفي رأينا ان الصلة لا يمكن ان تكون الا امراً واقعاً فرض نفسه فرضاً على السلطات الكهنوتية فراحت تتبنى تطبيقـــات سياسية خارجة عن مبادئها الغيبية. والحقيقة اننا نجد مفهوم هذا السلم الطبقي التدريجي الذي ينتظم الكائنات ـ في رأي الكنيسة ـ قابلاً لتبرير طبقية التركيب الاجتماعي الذي نشهده في عـــالم اليوم ، تبريراً تجريدياً، وهذا المفهوم قابل ايضا لتبرير كل جهد وكل نشاط يرمي الى دعم أطر المجتمع المعاصر . انها ـ اذن ـ صلة غير مباشرة ، وغير عقلية في حقيقتهـــا ، تلك التي تصل النظرية الغيبية بتطبيقاتهـا ، بعد ان تمنحها التعابير المحافظة على وجودها وخصائصها .

اما اذا انعكست الآية ، وتخلت النظرية عن هذا العمل

التطبيقي ، فانها تظل نظرية تأملية مجردة ، لا قيمة عملية لها . ونتكلم بصراحة ووضوح فنقول بتعبير آخر ان المفهوم المسيحي للكون ، اي نظرة المسيحية الى الكون ، هي اليوم نظرة سياسية فقط . وهي لا تحيـــا الا بهذه الصفة ولا تكتسب قيمتها العملية الا من سياستها . ومع ذلك تتركز النظرية ، بالنسبة الى التطبيق ، على صعيد آخر ، هو صعيد التجريد الغيبي اللاهوتي ؛ ونحن لا نجد ، بين جانب النظر وجانب التطبيق ، أيما علاقة صريحة عقلية محدودة، وهذا مما يتيح للقائمين على الفكرة وسياستها ، حرية كبرى في العمل والتصرف .

اما الماركسية، فعلاقة العمل بالنظرية يختلف عن هذا اختلافاً بيّناً ، وسنرى ذلك واضحا جلياً في فصولنا الآتية .

والماركسية تبدو في الوهلة الاولى ، تعبيراً عن الحيـــاة الاجتماعية ، والتطبيقية الواقعية ، في مجموعها ، وفي حركتها التاريخية ، بقضاياها ومتناقضاتها ، ويعني هذا انها تعبر ايضاً عن امكان تخطي تركيب المجتمع الماضي نفسه .

والتعاليم الماركسية، الخاصة بالعمل السياسي، لها علاقة صريحة مكشوفة عقلية بتعاليمها العامة . وهي تعالج مسائل سياسية خاضعة لمعرفة الواقع الاجتماعي معرفة عقلية ، وهذا يعني انهـا تخضع للعلم .

واذا نظرنا الى الماركسية، من هذه الزاوية ، وجدناها بمثابة علم اجتماعي ، تترتب عليه نتائج وتعاليم سياسية ، امـا مفهوم

الكون الذي يناهضها ، فهو سياسة تبررها – تجريدياً – نظرة غيبية .

وقد رأينا تبديد الاوهام عن هذه النـــاحية المهمة : فمن الاخطاء التي ترتكب عادة ضد الماركسية ، خطأ فادح يتعلق بنظرة شائعة جداً ، ترى ان الماركسية ، سياسة يتخذهـــا الماركسيون اولاً ثم يجدون المبررات لها بتفسير الكون تفسيراً يتمشى مع تلك السياسة . والواقع ان الماركسية لا يمكن ابداً ان تتخذ هذا المظهر المناقض لجوهرها واتجاهاتها .

ونحن اذا قبلنـا بتعريف الماركسية هذا التعريف الشامل ، « بانها مفهوم الكون ، ونظرة الى الوجود ، وتعبير عن العصر الحديث بجميع مشاكله وقضاياه » فمن الواضح – بعد ذلك – ان لا تنحصر الماركسية في آثار كارل ماركس وتعاليمه . ولا يصح عندئذ ان نعبر عنها بقولنا فكرة ماركس وفلسفة ماركس.

والواقع ان الصبغة العقلية العلمية لمعطيات الفكر المعـاصر والتجربة المعاصرة قد عرفت قبل ماركس بزمن طويل :

١ – فان دراسة العمل الذي يربط الانسان بالطبيعة، ودراسة تقسيم العمل الاجتماعي ، وتبادل منتوجـات العمل الخ... هذه الدراسات كلهـــا ابتدأت منذ اواخر القرن الثامن عشر في البلدان السباقة في ميدان التطور الاقتصادي (انكلترة) وقـد قام بها بعض كبار علماء الاقتصاد (بيتي وسميث وريكاردو...)

٢ – وكذلك دراسة الطبيعة ، بصفتها حقيقة موضوعية ،

ومصدراً للانسان ، بدأ بهـا بعض كبار الفلاسفة الماديين واكملوا مراحلها : (دولباخ ، ديدرو ، هيلفيتيوس) ثم تلاهم فيورباخ. ولا ننسى اثر العلماء من رياضيين وفيزيائيين وبيولوجيين الذين اكتشفوا خلال القرنين الثامن عشر والتـــاسع عشر عدة قوانين طبيعية .

٣ – وقد دشن المؤرخون الفرنسيون في القرن التـــاسع عشر : تييري وميننيه وغيزو ، الابحاث في الطبقات الاجتماعية الكبرى ، وصراعهـا المستمر وطبائعهـا ، في معرض دراستهم الاحداث الثورية التي امتلأت بذكرها كتاباتهم .

٤ – وقد تم التخلي النهائي عن مفهوم الكون المنسجم منذ منتصف القرن الثـــامن عشر . ونجد ذلك – ولو في صورته البدائية – في كتابات فولتير (كانديد) ومؤلفـــات روسو (المجتمع في مناقضته الطبيعية) وفي مؤلفات كانت (نقد العقل التطبيقي) ولا يسعنا اغفال اثر مالتوس رغم جميع اخطائه واوهامه.

وجاء دارون بعد ذلك ، فاجهز على فكرة التفاؤل الهين ، وقضى عليها القضاء الاخير .

ولكن آثار « هيجل » ونظرياته تظل اهم ما كتب في هذا الصدد ، فهو وحده الذي وضّح تماماً اهمية المتناقضات في صميم الانسان ، والقى نوراً كشافاً على دورها ، وتعددها وشمولها التاريخ والطبيعة في وقت معاً .

ويجب ان نعد عام ١٨١٣ (تاريخ صدور كتاب ظاهرات

العقل لهيجل) نقطة تحوّل تاريخي في نشأة المفهوم الماركسي الكوني الجديد .

٥ – طرح كبار علماء الاجتماع الفرنسيين، في القرن التاسع عشر ، قضايا جديدة على بساط البحث . كقضية تنظيم الاقتصاد المعاصر تنظيماً علمياً جديداً (سان سيمون) وقضية الطبقة العاملة ومستقبل البروليتاريا السياسي (برودون) وقضية الانسان ومستقبله ، وظروف التطور البشري (فوريه) .

٦ – واخيراً يحسن بنا ان لا ننسى ان كلمة ماركسية التي شاعت وتناقلتها الالسن ، تنطوي على شيء من الظلم والحيف . والواقع ان الماركسية كانت ، منذ اول عهدها ، جهداً لجماعة تميز بينهم ماركس ، ولا يسعنا ان نتناسى مساهمة فريدريك انجلز في صياغة الفكرة الماركسية ، بل ان انجلز هو الذي لفت نظر ماركس الى اهمية الاحداث الاقتصادية ، وحالة البروليتاريا... الخ...

والماركسية ستضم جميع العناصر التي ذكرنا .

اذن ، ما اثر ماركس الصحيح ، وما العناصر الجديدة التي جاء بها ؟ :

١ – ان اكبر الاكتشافات الفكرية الانسانية جرأة، وهي التي تمت في القرن الثامن عشر ، ظلت مبعثرة موزعة الاجزاء ، ثم ان الحدود كانت تحيط بكل فكرة من هذه الافكار لتركزها في مذهب غير متكامل...

وهكذا كانت المادية المستمدة من العلوم الطبيعية ، ونعني بها المادية الفرنسية ، التي نشأت في القرن الثامن عشر ، كانت تكتسب صفة آلية محضا ، وتميل الى تفسير الطبيعة بانها جملة من العناصر الطبيعية المتحركة المتشابهة في كل زمان ومكان .

وعلى العكس نجد نظرية المتناقضات عند هيجل تميل الى التمركز في فكرة مثالية مجردة تضع لكل شيء تعريفاً تريده نهائياً ، معترفة مع ذلك بوجود التناقض في جميع هذه الاشياء على السواء .

وكذلك توقفت ابحاث علماء الاقتصاد التقليديين عند نقطة معينة كان اجتيازها ، لمواصلة البحث ، يحتم عليهم النظر بعين الواقع الى المتناقضات الحقيقية في صلب الكيان الاقتصادي ، والاجتماعي ، في داخل هذه الطبقات التي كان المؤرخون قد اكتشفوها منذ عهد قريب . واخيراً عجز علماء الاجتماع عن تركيز افكارهم وآمالهم على اسس نظرية تطبيقية راسخة ، فظلوا طوبويين انتزاعيين ، يبنون مجتمعهم المثالي في بلاد الخيال...

اما عبقرية ماركس (وانجلز) فقد عمدت الى اكتشاف الصلات (التي ظلت خفية حتى ذلك العهد) بين هذه المذاهب جميعها ، ورأت فيها تعابير ، مجزأة ، عن المدنية الصناعية المعاصرة وقضاياها ورأت فيها كذلك اضواء جديدة تلقى على الطبيعة والتاريخ في العهود الحديثة .

٢ – عرف ماركس كيف يحطم السدود والقيود ، ويحرر